كيف لا نحوّل هيكل إلى مومياء أو أيقونة... كيف نبقيه «حيّاً»؟!

■ نصّار إبراهيم

الإعلام كلمة رصينة ودقيقة، علم ومهنية، مبدأ وموقف وانتماء، قوة كشف ونقد، حرّية ومسؤولية، وبكلمة: الإعلام قضية!

لقد رحل محمد حسنين هيكل أسطورة الإعلام العربي في القرن العشرين،

هدفي الأساس في هذا المقال الكثيف ليس تأبيناً أو رثاءً للراحل العملاق. وليس توثيقاً لسيرة حياته وتجربته. ما أريده فكرة حاسمة واحدة هي: لفت نظر الإعلاميين العرب والكتّاب والصحافيين والساسة إلى النموذج الذي مثّله محمد حسنين هيكل في تجربته الممتدة على أكثر من سبعين سنة. هنا تكمن قيمة الاحتفاء والاحترام لمحمد حسنين هيكل، إضافة إلى الثروة الفكرية والتاريخية والسياسية التي تركها. بهذا نحافظ على هيكل حياً، ولا نجعل منه كعادتنا مجرّد عنوان احتفاليّ كرنفاليّ!

الآن، نحن بحاجة إلى استلهام تجربة هيكل وكلّ التجارب الإبداعية في حقل الإعلام أكثر من أيّ وقت مضى. الآن حيث هذا العصف الهائل والمدمّر الذي يدور حولنا، حيث الإعلام يشكّل أداة جبّارة في تشكيل الوعي والموقف والسياسة، الآن حيث سقط كثيرون من الأعلاميين العرب في الاختبار الطاحن الذي تمرّ به الأمة. لقد سقطوا في الامتحان من الجولة الأولى حين تحوّلوا إلى مجرّد أدوات رخيصة في التحريض والتعبئة الطائفية والدينية والعنصرية وجفاف الخيال. فانكشفت بهذا السقوط المروّع أهوال العفن والضحالة والخفة في التعامل مع القضايا والأسئلة المصيرية، حين انحاز كثيرون من هؤلاء الإعلاميين إلى كلّ ما يهين ويشوه تاريخ الأمة.

ستكون جريمة موصوفة جديدة أن نحوّل هيكل إلى مومياء، أو أيقونة معلقة على جدران المتاحف، بينما المطلوب أن نجعل من تجربة هيكل ومهنيته وشجاعته وشموليته والتزامه ورصانته ودقته، مدرسة لإعادة ترميم ما لحق بالإعلام من تشويه ومن ضحالة. كيف نستغل رحيل هيكل لنعيد بناء الأداء الإعلامي العربي؟ وأن نحاكم بقسوة أي أداء هابط؟ لن يجيب هيكل على كل ذلك، لكن تجربته بمثابة ثروة قومية توازي أيّ ثروة طبيعية من حيث أهميتها وقيمتها. فهل سنتجاوز دائرة الرثاء والتبجيل إلى دائرة الفعل والحيوية في قراءة التجربة والتعلم منها؟ هذا هو السؤال.

هيكل مدرسة هائلة في عالم الإعلام، كما شكّل نموذجاً مدهشاً في ترجمة دور الإعلامي عند التعامل مع تحديات الواقع وأسئلته. الإعلام ليس مجرّد ثرثرة بل علم، والإعلامي عليه أن يكدّ ويتعب في جمع المعلومة وتدقيقها والوصول إليها كي لا يلقي الكلام على عواهنه. الإعلام ليس دعاية رخيصة إنما هو رسالة عميقة وخطيرة.

لقد تميز هيكل بأنه إعلامي محترف بكل معنى الكلمة. لكن احترافه لم يكن احترافاً ستاتيكياً أو جامداً. لقد كان إعلامياً حيوياً وفاعلاً وعلمياً ولكنه لم يكن حيادياً، بنى تجربته بالدراسة والمعرفة والشجاعة والصبر.

الإعلام عند هيكل ليس مهنة بل معرفة وموقف ومبدأ، فهو لم يكتب باللغة المائعة أو العمياء على حدّ قول كنفاني. بل كان يحمل القلم ليدافع عن قضية وعن خيارات واضح. قضية مصر، قضية العرب فلسطين، قضية الحرية، قضية شعوب العالم الثالث في مواجهة قوى الاستعمار. لقد دافع عن حقوق شعب مصر في الاستقلال والتقدّم. دافع عن تأميم قناة السويس ودافع عن مشروع السد العالي. وقانون الإصلاح الزراعي، كما لم يصمت أمام انزياح السادات نحو القوى الاستعمارية الغربية ونحو الاحتلال «الإسرائيلي». لقد بقي مؤمناً بدور مصر العربي والقيادي الفاعل على مستوى المنطقة والإقليم... هذا هو الإعلامي الأصيل.

لم تتزعزع ركائز موقفه مع تبدّل الحكام. نعم، لقد كان واقعياً. فكان يدرك التحوّلات في الواقع السياسي والاجتماعي والعالمي. لكن قلبه وقلمه وعقله وفكره دائماً مع مصر وعلى مصر والأمة.

جاء السادات فوقف إلى جانبه في خياراته حين كانت تعني الاستعداد لحرب أكتوبر، وأثناء حرب الاستنزاف. ولكن ما أن انحرف السادات وبدأ يدير ظهره لمصالح مصر وتاريخها، وانتقل إلى أحضان الولايات المتحدة، حتى وقف الإعلامي هيكل وبوضوح ضدّ ذلك، الأمر الذي انتهى به إلى السجن. ومع ذلك لم ينحن ولم يساوم.

كان أعلامياً وصحافياً وكاتباً وسياسياً ومفكراً بارعاً، كان يكتب ويوثق ويؤرخ. كان يجعل من السياسة قضية إعلامية ومن الإعلام قضية سياسية، وكل ذلك يستند إلى ثقافة واضحة من حيث مضمونها وخياراتها، ثقافة قومية عروبية تقدمية إنسانية. وفي كل ذلك لم يهبط هيكل بأدائه المهني، لم يشوّه الإعلام، ولم يحوّله إلى إشاعة، بل بقي ملتزماً بأصول الإعلام المهنية والعلمية.

ولأن هيكل كان كلّ هذا، ولأنه بقي وفياً لمفهوم ثورة «23 يوليو» وقيمها وأحلام عبد الناصر، وبعدها كلّ ثورات الشعب المصري العظيم، ولأنه لم يساوم على مصر وقضايا العرب. فإن كلّ من هم ضدّ هذه القيم من قوى سياسية رجعية ومتخلفة وإعلاميين صغار نراهم اليوم يتطاولون على هيكل، هذا ما نلاحظه بوضوح في أوساط «الإخوان المسلمين» وعند بعض الإعلاميين التافهين. تلك هي ثقافة الانتقام التي لا ترى أبعد من ذاتها، إعلاميو السلطة بمعناها الهابط، الأقلام المأجورة لقوى الغزو الثقافي، الإعلام الطائفي الذي يفتقد للعمق والخيال الثري، يحدث هذا لأن هيكل هو نقيضهم، فهو بأصالته يذكرهم دائماً بضآلتهم وعجزهم وجبنهم. لهذا يحاولون المساس به، فالقمم العالية هي دائماً عنوان مناسب للثرثرة والحقد والغيرة والسفالات، لكنها لا تهتم، لأنها مشبعة بذاتها كقمم.

لو أن هيكل في دول تحترم نفسها لأصبح رمزاً قومياً في كلّ البلاد. لو أن هيكل في دول تحترم نفسها لجرى تدريس تجربته وكتبه ومنهجه الإعلامي والصحافي في الجامعات.

هذا هو محمد حسنين هيكل الذي رحل، هكذا على الإعلامي أن يكون، أو لا يكون!

كان حالة خاصة... يراجع مواقفه ويصوّب الخطأ

محمد حسنين هيكل... نهاية حارس زمن المواقف وصحافة الورق

■ جهاد أيوب

لم يكن محمد حسنين هيكل مجرّد كاتب أو صحافيّ عابر. بل هو كل ما له علاقة بفنّ الكتابة الصحافية والقرار الإعلامي. هو مدماك الصحافة المصرية التي عمل فيها وهي في أوج توهجها، أضاف إلى نجاحها نجاحات، وأثبت أن للقلم قوة الموقف، وعبق التغيير، وصوت الآخر. استلم جريدة «الأهرام» التي كانت في حينه منارة، وثابر حتى حافظ على نجاحها حتى التفوّق. تعود بعدما سار الدرب إلى جانب جمال عبد الناصر أن يعبّر عن أفكاره علناً من دون خوف من ردّ فعل الحاكم. انتقد جمال، وعبّر عن ارتكاب أنور السادات الأخطاء في تسليم مصر لـ«إسرائيل» حتى سُجن. وقف امام سياسات حسني مبارك الوهمية الفاسدة. وحتى النفَس الأخير، كان يدعو السيسي كي يتصالح مع إيران.

إيران التي لم يستوعب ثورتها وقائدها الخميني في البدايات، لا بل وقف منتقداً بمناسبة ومن دونها، وبعد صدق مواقفها، خصوصاً إزاء «إسرائيل»، واحتضانها القضية المركزية فلسطين، أدرك هيكل أنها ثورة حقّ ضد الباطل، وأنها قوة للعرب والجغرافيا والتاريخ. وحينما قام بمراجعة منطقية لمواقفه ضدّ الثورة الإيرانية وضد بدايات المقاومة الاسلامية في لبنان، عاد ووقف شامخاً مؤيداً معهما، لا بل كان متعصّباً لهما، وينتظر الكثير من المقاومة في لبنان!

حينما التقى سيد المقاومة حسن نصر الله في المرّة الأخيرة، قال للسيد: «قف يا سيد، وقبل الجلوس أحب أن أخبرك أنني تعرفت إلى كلّ الملوك والأمراء والحكام وجالستهم جميعاً، وكنت أنظر إليهم من فوق إلى تحت، أما أنت فأنظر إليك من تحت إلى فوق، لأنك القائد الحقيقي والأمل لهذه الأمة».

أذكر حينما التقيته أواخر التسعينات من القرن الماضي في القاهرة ولمرّة يتيمة، وكانت كتبه آنذاك ممنوعة من العرض في معرض الكتاب هناك، بقرار من حسني مبارك إرضاء لنظام آل سعود، وهو القائل في مقال كرسالة للملك السعودي: «أنا صاحب القلم الوحيد الحرّ الذي لم تتمكن من شراء حريته وضميره»... كان يومذاك منزعجاً ومبتسماً في آن، يكثر من الأسئلة والكلام وقلّما يصمت، وكأنه لا يحبّ فنّ الإصغاء.

وحينما تحدثت عن المقاومة في لبنان ودورها وأهميتها لنا ولكرامتنا وحضورنا، وأنها ستغيّر وجه العالم، سخر من كلامي، وأشار غاضباً عن غياب المجتمع الحاضن في بلد كلبنان... يومذاك شعرت بالإهانة ورددت عليه بكلام قاس ينتمي إلى العنصرية، وانسحبت متأسفاً لضياع وقت الرحلة... ومع الزمن، أدركت أنّ قامة كهذه من حقها أن تسأل حتى تعيد قراءة مواقفها، فندمت لضياع فرصة لن تتكرّر بسبب الغرور والعنجهية والعنصرية التي وقعت فيها!

هيكل هو حارس الصحافة الورقية التي تسلّم أوراق اعتمادها لعصر التقنيات الجامدة والسريعة، وهو حارس التاريخ العربي قبل أن يزوّر، وهو حارس الكلمة الموقف والمقال المطوّل والسرد المكثّف والحقيقة التي تغيب بأموال البترول.

في سقوط حسنين هيكل عن جواده، في هذه المرحلة صفعة للاعلام العربي الهجين، وطعنة لمعنى الكتابة العربية في زمن تزوير اللغة، وصرخة مدوية تربك الجميع لربما تذكرنا أن لنا بلادنا في فلسطين وسورية ولبنان واليمن والبحرين، وأنّ مصر لم ولن تباع في «كامب ديفيد».

رحيل هيكل خسارة، وإن عدنا إلى مواقفه وكتُبه سنتعلّم أن المصافحة مع العدو خيانة، وأن غالبية النظام العربي صافح العدو الصهيوني لذلك تاهت الأمة، والأمل يبقى بمن لم يصافح، بمن لن يعترف بالعدو المغتصب لأرض فلسطين ولفضائيات الأعراب ولغالبية الإعلام المكتوب بلسان المرتزقة الجَهلة وحبر الحاقدين!

المرأة والكتابة في «يوميات كاتب يُدْعى X»

نابلس - رائد الحواري

«يوميات كاتب يدعى X»، مجموعة من النصوص السردية، هي الرابعة التي يصدرها الكاتب والشاعر فراس حج محمد؛ فبعد «رسائل إلى شهرزاد»، و«طقوس القهوة»، و«دوائر العطش» تأتي هذه المجموعة. لا أحد ينكر أنّ الكاتب من خلال هذه الكتب استطاع أن يضع لنفسه خطاً متميّزاً في الكتابة، فهو يكتب بطريقة تتناسب وطبيعة عصر الإنترنت المتّسم بالسرعة، فهو يعمل من خلال ما يقدّمه من شكل وأسلوب كتابة أن يكسب أكبر عدد من الجمهور، وأن يوصل فكرته ولغته وطريقته في الكتابة إلى مجاميع متنوّعة ومتباينة، ويعمل على أن يكون مؤثّراً وفاعلاً فيها، وهذا ما يحسب لفراس حج محمد أنه يكتب بطريقته، فلا يقلّد أحداً في كتاباته، ويعمل لأن يكون كاتباً فريداً بهذا الشكل من النصوص السردية. من هنا نجد تأثره بالقرآن الذي يميّز كتاباته كافة؛ إن كانت نصوصاً نثرية أو قصائد شعرية، فهي بمجملها لا تخلو من حضور النص القرآني وأثره فيها.

هذه المجموعة مقسّمة إلى ثلاثة أجزاء رئيسة، «يوميات الكاتب X»، و«رسائل»، ونصوص أخرى متعلقة بالمجتمع والمسائل العامة والتعليم والكتابة والكتّاب، وما يلفت النظر في هذه المجموعة - كما الحال في سابقاتها - حضور المرأة وتأثيرها وأثرها في فكر الكاتب، فهي المحرك والباعث والمحفز على خوض غمار هذه التجربة. ويضيف إليها هاجس الكتابة، ودوافعها، وأثرها فيه، وما يَرِدُه منها، وكيف يريد أن يكون هو ونحن القراء له، ونجد هذا الهاجس يتجه إلى ربطه بالمرأة، بمعنى أن الكاتب يجعل الإثارة التي تتركها المرأة عليه موازية للأثر الذي تتركه الكتابة فيه، وهذا الربط يخدم الفكرة التي يريد طرحها، ثمّ يجعلنا نتقدّم أكثر منها، لكي نصل إلى النشوة التي أوصلت فراس حج محمد إلى هذا الإبداع وهذه الخصوصية.

وما يميّز هذه المجموعة وجود بعض النصوص المطروحة بطريقة أقرب إلى الفلسفة، والفكر المجرد، وهي من أهم الأشكال التي تثير المتلقي، وتجعله يحترم هذه التجربة، ونجد أيضاً اللغة المحكية الفلسطينية واضحة في المجموعة، وكذلك يسرد لنا شيئاً من الأمثال الشعبية المتداولة، كل هذا جعل المجموعة أقرب إلى وليمة فكرية فيها كل أصناف الغذاء والطعام، من المقبلات والمشروبات، إلى الفاكهة والحلويات، وأيضاً يضاف إلى كل هذا الجو الهادئ والموسيقى الناعمة التي تجعلنا نستمتع أكثر بهذا الغذاء.

المرأة في اليوميّات

نحن مع أن تكون المرأة حاضرة وفاعلة في كل ما نقوم به، فهي من يخلصنا من الكآبة التي تتسم بها مجمل حياتنا. هناك ما يقارب عشرين نصاً كانت المرأة هي المركز المؤثر في ما كتب، وهذا يشير إلى المساحة التي تحتلها المرأة - في العقل الباطن - عند الكاتب. لن نأخذ كل الشواهد التي تناولها الكاتب عن تأثره بالمرأة، لكنني سنتناول نصاً وصل فيه الكاتب إلى ذروة هذا التأثير. جاء في هذا النص، «هو أنا أنت، وأنا الآن صناعة خاصة برسم قلبك الذي احتوى وجعي وأنار بصيرة الرؤى التائهة، فلا تبرئي من دمائي ولا تتبرئي مني، ولا تكوني ذلك الغول الفكرة الذي يغتال ما تبقى من رجل لا يكون إلا بك وحدك، فلنصارع الغول معاً، لعلنا نظفر بالسلامة» (ص 31). ما يطرحه الكاتب هنا لا يعتبر المرأة شريكاً له فحسب، بل هو ليس له أي فاعليه، أو أي تأثير، أو رجولة من دونها، فقد اشترط ربط رجولته بالمرأة، فهو من دونها لا شيء، غير موجود. وما يطلبها منها لم يكن فعل أمر، بل جاء بطريقة التوسل، وطلب العطف، والمساعدة، من هنا كانت المرأة هي بمثابة السيّد، والرجل بمثابة العبد، الضعيف الذي يستجدي من سيده الرحمة والمساعدة والعفو.

ولم تكن المرأة الحبيبة فقط هي من يحرك الكاتب نحو الإبداع، بل أيضاً تحدث عنها كأم، فكتب ثلاثة نصوص عن الأم، وهو يعترف بأثر أمه فيه وفي تركيبته النفسية، فيقول عنها: «... وأنا ما زلت ابن الأربعين الباحث عن مرضعه، لأنني لم أشبع من ثدي أمي وأنا صغير، فقد فطمتني عن الرضاعة صدرها صغيراً صغيراً، فبقيت كما أنا» (ص 55)، وكأنه من وراء هذا الاعتراف يريدنا أن نبرر تعلقه بالأنثى، ولماذا يتمسك بها إلى حدّ التوحد معها، فمن دونها لا يكون هو.

ونجد نصاً كاملاً عن الأم بعنوان «عن الرزّ والبرغل وأشياء أخرى» يستحضر أمه فيه، ويقدمها بصورة الأم الفلاحة المكافحة في سبيل أبنائها: «أمي كانت تحب صناعة الأكل، ولم تكن تأكل كثيراً، كانت تجالد الفقر حد المقاومة الشرسة، هزمته مرات عدة، وبقيت تتحلى بذاكرتها الخصبة وصوتها الشجي الشهي!» (ص 78)، وتحدث في «الرسالة رقم 8» عن أمه بتفاصيل دقيقة، وكذلك في النص الثالث «هذا الذي قد يغضب أمي»، فالكاتب إذن لم يهمل الأم رغم تفوق حضور المرأة الحبيبة المشتهاة في الكتاب.

المرأة والكتابة

يجمع الكاتب في بعض النصوص ما بين المرأة والكتابة، حتى أنه في النص «الرسالة رقم 7» يقدم هذا الاندماج بينهما بقوله: «أحتاجك وأنا أعالج القلم في لحظة شبقه المحموم، وهو يفضّ بكارة أوراقه استعداداً لوصالك» (ص 57)، بهذا الدمج استطاع أن يقدم صورة مركبة، فنية، تظهر لنا مكامن الكاتب الداخلية وما يحمله - في العقل الباطن - من تطرف العلاقة التي يريدها مع المرأة، فهي هنا ليست للحب الصوري العذري، بل يريدها جسداً، يلهب غريزته ويصبّ فيه شهوته.

كما يقدّم الكاتب شكلاً آخر من الدمج بين المرأة والكتابة بهذا الطرح: «معك تفيأت ظلالك بفكرة الكتاب، فكنت الكتاب الذي تكاملت فكرته وتشعبت وتشابكت معانيه وتبلجت حروف ضيائك فيه» (ص 48)، وما يحسب لهذا الطرح أن الكاتب قدّم للمتلقي شيئاً مرغوباً فيه - المرأة - وأضاف إليه شيئاً غير محبب / متروك / مهجور - ونعني هنا الكتاب - بهذا يدفع المتلقي كي يبحث عن هذا المهجور / المتروك، فليس من المنطق أن يقرن شيئاً مرغوباً فيه بشيء مهجور، ما يجعل القارئ يبحث ويفكر به كي يتعرف عليه ويجد ما فيه.

توظيف اللغة المحكية

هناك نص كتب باللغة المحكية، «ذات لقاء في المدينة رسالة شفوية حادة»، وما يميز هذا النص أنه يقدم صورة المرأة الجاهلة والمتخلفة، التي تدّعي الثقافة، فهي تحمل ثقافة ضحلة، وفي ذات الوقت سلوكها ينم عن تخلفها وانتهازيتها، وأعتقد أن الكاتب تعمد أن تكون تلك الجاهلة هي المتكلم شبه الوحيد في النص، لكي يعريها مما تدّعي حمله من ثقافة ومعرفة، «كتبك اللي قال ألفتها فيبي خليها إلك» (ص 71)، النص بغالبيته على هذا النحو، وهذا التوظيف يعدّ مثالياً؛ إذ يتوافق مع الفكرة المطروحة، وينسجم معها.

ومن اللغة المحكية وما تحمله من أمثال شعبية وظف الكاتب شيئاً منها، مثل: «قتيل أديه ما بنبكي عليه»، «بطيش على شبر مي»، (ص 70)، «المشغول لا يشغل» (ص 92)، وهذه الأمثال تشير بطريقة غير مباشرة إلى بيئة الكاتب وحدث السرد.

وفراس حج محمد يستحضر القرآن في كتاباته بطريقة اللاوعي، فيقدّمها، وكأنها جاءت هكذا، من دون قصد، ومن دون تكلف، وهنا تكمن أهمية ما يكتبه، فلا نجد الإقحام في النص ولا الفرض أو الواجب، «فالنسمة الخجولة تداعب أعطاف الشجر وتهز الثمر، فيسّاقط رطباً جنياً» (ص 50)، «لا تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير» (ص 51)، «وأنا ما زلت أصرخ في وادي غير ذي زرع في أطراف بيت شعر مدنس» (ص 55). «يهتفون بالصراخ، يسيرون وعدتهم وعتادهم بضاعة مزجاة» (ص 62)، «ما رأيكم؟ هل تشبه (تفو عليك) (أف لكم ولما تعبدون)» (ص 72)، «وتموت كل المعاني وتصبح نسياً منسياً» (ص 88)، إذا تأملنا كل ما تقدم نجد أن استحضار النص القرآني جاء سلساً، وخدم النص والفكرة وأعطاه سمة جمالية وفنية.

رائد الحواري

النزعة الفكرية

في نص «عندما حاورني ظلّي» نجد بعداً فكرياً، يكاد يصل إلى الفلسفة في ما يطرحه الكاتب، فهو يستخدم الحوار بينه وبين شخص آخر مجهول، يمثل صحافياً أو من هذا القبيل:

«- لماذا أصبحت الرواية أهم من الشعر؟

- ليست أهم ولكنها تنتشر انتشار النار في الهشيم، فغطت سحبها السوداء قمر الشعر.

- أيّهما تفضل أن تقرأ: الشعر أم الرواية؟

- أحبّ أن أقرأ ذاتي في كلّ كتاب شعر ورواية.

- ما الحدود الفاصلة بين الشعري والروائي؟

- هو الحدّ الفاصل بين شقك الأيمن والأيسر» (ص 105).

بهذا الحوار المسرحي استطاع الكاتب أن يقدّم فكرته عن الشعر والرواية، وهي أفكار تبيّن عمق المعرفة والتحليل الذي يملكه الكاتب لكلّ منهما.

ننوّه إلى أن الكاتب قد تناول مدينة نابلس في كتابه، وهذا أمر جيد، لكن المتتبع نصوص هذا الكتاب وما سبقها من كتب، يجد شحّ تناول الطبيعة، رغم أن الكاتب يعيش في قرية، من هنا نقول - من باب الاقتراح - إن الكاتب يستطيع أن يستفيد من مخزون الطبيعة التي يعيش فيها، خصوصاً أن الريف الفلسطيني مميّز بتنوّعات فصول السنة كافة، ما يعطي تنوّعاً جمالياً، يضفي على الإنسان الهدوء والسكينة والتأمل، كما الحال بالنسبة إلى المرأة، من هنا يمكن أن تكون الطبيعة الريفية منفذاً آخر للشاعر، كما حال المرأة والكتابة، عليه أن يتقدّم منها كي يأخذ طاقة إبداعية إضافية.

*الكتاب من منشورات الرقمية - القدس - فلسطين - الطبعة الأولى 2016

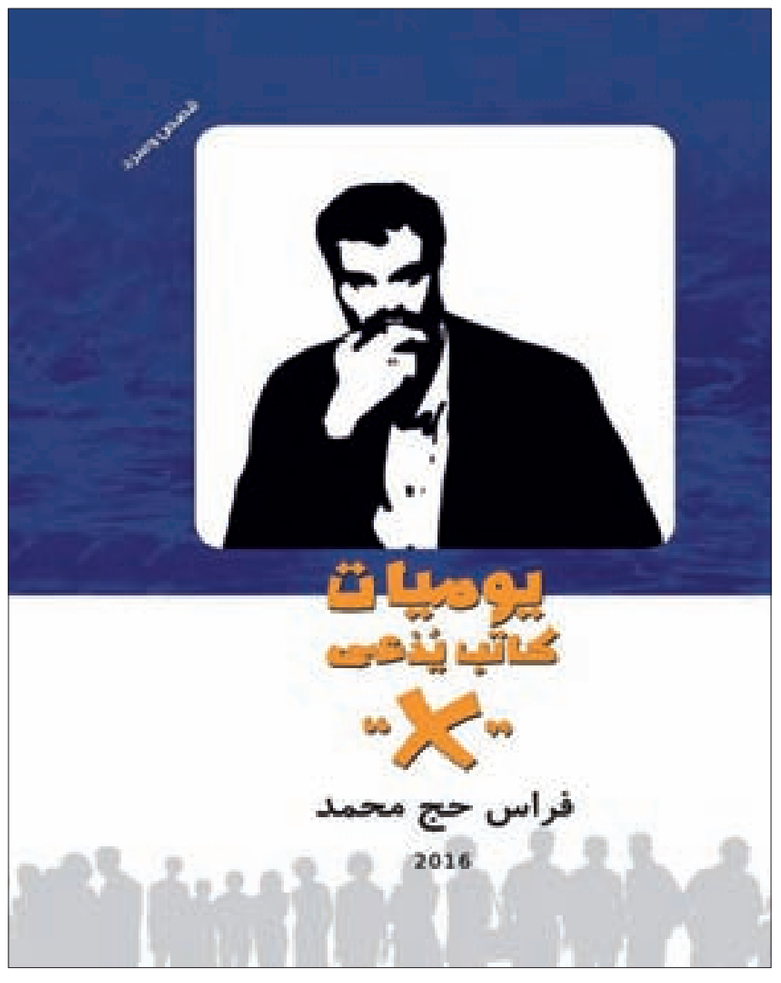

عصر الإذاعة الذهبيّ

■ عبد الحكيم مرزوق*

قبل أن يعرف المواطن العربي الصحون اللاقطة للمحطات الفضائية عبر الأقمار الصناعية، كان يستقبل البثّ التلفزيوني عبر «الأنتيل»، أو الهوائيّ العادي الذي كان يلتقط بثّ المحطات الأرضية السورية وبعض المحطات اللبنانية. وكان ذلك الوقت يعتبر عصراً ذهبياً للمحطات الإذاعية التي كانت وما تزال تبث برامجها من خارج القطر وكانت تستهدف المواطن العربي من خلال برامجها المختلفة سواء كانت المنوّعة منها أم الإخبارية. وكانت في ذلك الوقت تستقطب جمهوراً كبيراً لطبيعة البرامج التي كانت تقدّمها على الهواء مباشرة والحوار المباشر مع المستمع العربي فضلاً عن الأخبار السياسية التي كانت تقدّمها من أنحاء متفرّقة في العالم العربي حيث كانت تلعب لعبتها الإعلامية الخبيثة فيها فتثير البلبلة في هذه المنطقة أو تلك تحت شعار المصداقية والموضوعية وإيصال الخبر الموثق بسرعة، وهي أبعد ما تكون عن تلك الشعارات التي تتخذها واجهة لتسويق الأخبار والسياسة الخارجية للجهة التي تموّل تلك الإذاعة وإيصال الصورة الذهنية التي تريدها للمستمع العربي عن أي شيء يمكن أن يطرح عبر تلك الإذاعة، لأن المستمع العربي دوره في التلقي كان أكثر من التأكد وتحليل المعلومات التي يسمعها.

تلك الإذاعات التي كانت تبثّ من فرنسا وإنكلترا وأميركا كانت لها صولة وجولة قبل أن نعرف خدمة البثّ الفضائي التي همّشت تلك الإذاعات ولم يعد المواطن العربي يستمع لها إلا في ما ندر، وذلك لأن خدمة الصورة والبثّ المباشر للأحداث طغت على لغة الصوت. ومع ذلك، حاولت تلك البلدان أن تستقطب المشاهد العربي عبر بثّها التلفزيوني الفضائي الجديد تحت عناوين الديمقراطية والحوار الموضوعي وشفافية الآراء والأفكار. والحديث عن مدى نجاحها أو فشلها سأتركه للمستقبل لأنني لا أستطيع أن أجيب عليه في هذه المساحة.

للاطلاع: يحكى أن هيئة الإذاعة البريطانية أنشأت إذاعة موجّهة تبثّ باللغة العبرية إلى «الإسرائيليين» في كل دول العالم وفي الكيان الصهيوني، وحينذاك قامت الدنيا ولم تقعد بحجّة أن «الإسرائيليين» لا يريدون لأحد أن يتوجّه إليهم بأيّ خطاب لم يكونوا صانعيه. ولذلك، أوقفت هيئة الإذاعة البريطانية إرسالها الموّجه باللغة العبرية في عام 1968 وقدّمت أسباباً لذلك منها أن «الإسرائيليين» يرفضون الاستماع إلى الإذاعات الموجّهة لهم بالعبرية، وإذا أرادوا الاستماع لإذاعات أجنبية فإنهم يفضّلون تلك التي تتحدّث بلغة أجنبية. ذلك أن معظمهم ينتمون إلى أصول أوروبية ويجيدون تلك اللغات. وقد علق مسؤول في هيئة الإذاعة البريطانية على وقف الإرسال بالعبرية بقوله: لا مصالح لبريطانيا في «إسرائيل» تستدعي أن يكون لها إذاعة موجهة بالعبرية.

ومن الواضح أن المصالح موجودة في المنطقة العربية ليس من قبل بريطانيا فحسب بل من دول أخرى نعرفها جميعاً، توجّه لنا بثّها اليومي وعلى مدار الساعة. ولكن من يتابعها؟ هنا يكمن السؤال.

*كاتب وصحافي سوري